كيف أصبح حضرة الشريف وكيلاً لآل عثمان

منذ الخلفاء الراشدين ، والعباسيين ، والأمويين وكل الخلفاء الذين تعاقبوا ؛ وهم حريصون على أن يمنحوا خطاً شريفاً لكل مَنْ هو مشرف بالإنتساب إلى نسل النبي ، وإذا ما أصبح هذا الشريف مسناً .. فهو يكون حكيماً ذلك الوقت أى قاضياً .. وكان إذا ما أبرز هذا الخط الشريف ؛ كانت تُفتح أمامه كل الحدود ..

ولما تم الفتح المبين لمصر لصالح الشاه سليم سنة ٩٢٣هـ أعطى عهداً .. وكانت طوال آيام سليم شاه ، وفى كل آيالة مصر يُقرأ هذا العهد .. وظل هذا القانون متبعاً حتى بعد سليم ، وأقره سليمان فى قانونه .. مفاد ذلك .. أن كل شخص ؛ يُحسَّبُ، ويُنسَّبُ الحسن والحسين.. أو يكون منتسباً إلى السادات الكرام، ويكون مسناً فيكون حكماً أي قاضياً .. ولكن مَنْ ينطبق عليه هذا الشرط ، ويكون حكماً لابد له أن يكون مأذوناً ، أي مسموحاً له من قِبل آل عثمان. فعندما فتح الشاه سليم مصر سنة ٩٢٣ كان شريف ذلك الزمان هو حاكم مكة وقاضيها .. حتى أن إبن شريف مكة قد جاء إلى مصر بمفاتيح الكعبة المشرفة وسلم المفاتيح إلى السلطان سليم وآنذاك كان كل مِنْ أبو السعود الجارحي ، وحضرة الكفافي ، على قيد الحياة – فسألا سليماً قائلين (يا سليم هل أنت خادم الحرمين الشريفين) . وكان ذلك يوم جمعة . وقام ابن كمال باشا بالخطبة فى ذلك اليوم فى مصر .

خلاصة الكلام قد أحسن السلطان عليهم بالحكومة .. ولكن كان شرطه الأول ؛ إذا ما توفى فينتقل الحكم إلي الكبير.. وهكذا.. ولكن إذا ما ظهر عصيان مفاجئ.. فإن العزل والنصب يكون فى آيدي آل عثمان.. وتنتقل إلي آصحاب الاستقامة ولداً عن والد . وصاحب الاستقامة يكون هو الشريف ، وتجدد له البراءة كل سنة .. ولابد أن يكون على وفاق وحسن مودة مع وزراء مصر.. وأن يعملوا على خدمة الحجاج المسلمين.. ومَنْ يحوز هذه الشروط الأربعين يكون شريفاً..ويتوجه إلى مكة .. وعلى هذا المنوال .. وطوال التاريخ .. وهم فى رعاية السلاطين المسلمين . والشريف الذى يُصبح حاكماً يُمنح ألف دينار ذهبي من السلطان كخاصة همايونية . ويُحضر هذا المبلغ إليه أمير الحج المصرى . ويخصص نصف جمرك بندر جده ، وينبع البحر ، وينبع البر للأشراف .. ويتولى ضبط وإدارة ذلك نفر من قِبلهم فى كل مكان من هذه

الإدارات . وبعرض خاص من سنان باشا [١] فاتح اليمن ، يأتى الخط الشريف [٢] وما زال سارياً حتى الآن [٣] ويخصص لهم سنوياً مائتي كيسه . ويأتيهم من الهند ، واليمن ، والعجم ، والمغرب والحاصل من كل بلاد المسلمين ما يُماثل خزينة مصر خمس مرات ذهباً، ويُقدم إليهم ما يَقْرب من ثلاثة آلاف جندي من العرب والأروام = « الترك » وسيطروا على مقاليد الحكم . وفى مرات عديدة يكون لهم الآلاف من العبيد البدو العرايا .. ولكن ليست لهم علوفه [٤] . وكان يدين لهم بالطاعة جملة الآعراب البدو ، ويقسموا لهم على « نصرة السلطان الشريف الهاشمى » . وإذا لزم الأمر يحضرون إلى المحكمة ويقسمون على ذلك برأس الشريف قائلين « ... بحق رأس الشريف » . كما كان للشريف عبيد يطلقون البنادق العثمانية ذات البيارق الإثنى عشر. يحبون طائفة الأروام ، لأنهم قوم شجعان. ووجهاء.. ليس للأشراف أطواغ [٥] أو أعلام ، ولكن لهم رايات تشبه علم رسول الله . وكذلك لهم فرقة طبل ، ودار ضيافة = مكرمه.. وقاضى بمخصصات شيخ الحرم . ولكن لم تُمنح لهم الإجازة بذلك ، وذلك لكثرة العصيان فى الماضى.. ومنذ أن شاروا ضد حاكم مصر قايتباى ، وهم يركبون خيولاً بدون ذنْب كتاديب لهم . وإلى الآن ، وصرة كل الأشراف ثنتا وستون ألف دينار ذهبي . وأن أمير الحج المصرى ، وأمين الصرة يُحضران كل سنة هذا المقدار من الذهب ، ويوزع على الجميع. كما أن لهم جرايات من الغلال تأتي من مصر .. هذه الجراية توزع سنوياً على عشرة آلاف وستين من الرجال والنساء .. هذا إلى جانب الصرة ، والعطايا والخلع الفاخرة التى تأتى من طرف السلطان ويُحسن بها عليهم .. إن مثل هذا الإحسان لم يكن له مثيل لآهالى مكة فى زمن

---

(١) سنان باشا : تولى الصدارة العظمى خمس مرات فى زمن كل من مراد الثالث ، ومحمد الثالث وينسب إلي الجنس الآلبانى . قام بضم العديد من البلدان إلى أملاك الدولة العثمانية ، تولى ولاية مصر سنة ٩٧٧هـ ثم قاد الحملات العثمانية على اليمن ، والهند ، وعاد منها بغنائم كثيرة ومنح لقب « غازى » لهذا السبب . توفى سنة ١٠٠٤ هـ عن عمر جاوز التسعين . « المترجم »

(٢) الخط الشريف : هو المرسوم الذى يصدره السلطان بصدد امر معيّن ، أو بتكليف احد موظفى الدولة بمهمة معينة ، ومحددة . « المترجم »

(٣) المقصود هو السنة التى حج فيها آوليا چلبى وهى سنة ١٠٨٢هـ .

(٤) علوفه : مبالغ مالية ، وكمية معينة من القمح والدشيشة ، والبن كانت تُخصص لبعض الفئات من العسكريين ، والمدنيين والمشايخ فى الدولة العثمانية « المترجم »

(٥) الطوغ : طرة من شعر الخيل ، كانت تُعطى فى العصور التركية المختلفة للأمراء والقادة كل حسب رتبته . « المترجم »

الأمويين ، والعباسيين ، والفاطميين ، والأكراد = الأيوبيين ، والتركمان = المماليك ، والچراكسة . . ولكن منذ سليم الأول والسلطان سليمان وقد شملت الصرة ، والصدقات ، والإنعامات سيدات الأشراف وجواريهم . . إن صرة آهل مكة ، وأهل المدينة تأتى من مصر ، وحتى الذين يقيمون فى مصر من أهل هاتين المدينتين المقدستين فإنهم تابعون لهذه الصرة ؛ لأن هذه الولاية صحراء بيداء ، والغلال التى تأتيها من الطائف ، والحجاز ، وعباس لا تكفى سكانها على الرغم من أن آراضيها شاسعة .

* * *